أثر الحروب الأيوبيّة_ الأيوبيّة على الوظيفة القضائيّة بدمشق

(590 _658هـ/1193_ 1260م)

طالبة ماجستير: غفران موفق الأسعد

قسم: التاريخ_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية_ جامعة حمص

إشراف: د. عبد السلام زيدان

أثر الحروب الأيوبيّة_ الأيوبيّة على الوظيفة القضائيّة بدمشق

(590 _658هـ/1193_ 1260م)

ملخّص البحث: شهدت دمشق بعد وفاة السلطان صلاح الدّين (569_589هـ/ 1173_1193م) مؤسّس الدّولة الأيوبيّة العديد من الحروب بين الملوك الأيوبيين، فكلّ ملك اعتبر نفسه الأحقّ بالسلطنة، وأن ما حصل عليه من إرث قليل.

أمّا عن ساحة القتال دمشق فقد عانت الكثير فالحروب أثّرت على جميع مفاصل الحياة فيها ولاسيّما على عمل الوظائف الإداريّة، وفي مقدّمتها القضاء، الملوك وجّهوا أنظارهم نحو القضاة نظراً لمكانتهم وقدرتهم على التأثير بأهل دمشق، وحاولوا إبعادهم، وبدورهم ردّ القضاة وكان على دمشق أن تتحمّل نتائج تلك السجالات إذ خسرت العديد من القضاة، و وصل إلى قضائها أشخاص غير مطلعين على شروط العمل القضائي، وانتشر الفساد بين الموظفين، ونتيجة لما سبق فقدت الوظيفة القضائية أهميتها.

الكلمات المفتاحية: دمشق، الحروب الأيوبيّة_ الأيوبيّة، القضاء.

The impact of the Ayyubid_ Ayyubid wars on the Judicial Function in Damascus (590-658 AH/1193-1260 AD)

Research summary: After the death of Sultan Salah AL-din (596-589 AH/1173-1193 AD). Who The founder of the Ayyubid state. Damascus witnessed many wars between the Ayyubid kings, Each king considered himself the most deserving of the sultanate, and The inheritance he obtained was little. As for the battle field, Damascus suffered a lot. The wars affected all aspects of life, especially The work of administrative functions especially The judiciary. The kings Turned their attention to the judges due to their status and their ability to influence the people of Damascus. So They tried to keep them away.

The judges, in Turn, responded, and Damascus had to bear the conscquences of those cases, as it lost many judges, people who were not familiar with the conditions of judicial work arrived its court. Corruption spread among employees, and as a result of the above. The judicial function lost its importance.

Keywords: Damascus, Ayyubid_ Ayyubid,wars, judiciary.

_مقدمة:

عُرفت شريعة الغاب بأنّها حالة من الفوضى حيث يقوم كلّ شخص بالتصرّف كما يريد و يأخذ حقّه بنفسه. وأنّ لا مكان للضعيف في الحياة، وكان من الممكن أن تسيطر هذ الطريقة على مفاصل الحياة و لكن وجدت الضوابط والنظم و على هرمها القضاء لمنع ذلك، إذ وجب على القضاة إحقاق العدل، و إنصاف الحق، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وأثناء الأزمات عليهم أن يكونوا صفّاً واحداً أمامها و بالمقابل على الحكام و الملوك وغيرهم من أصحاب السلطة أن يكرموهم و يحافظوا على مكانتهم.

في ظلّ الحروب الأيوبيّة _الأيوبيّة الّتي شهدتها دمشق تبدلت كلّ المفاهيم و المبادئ المتعلّقة بالقضاء سواء بالنسبة للقضاة أو للملوك، فكلّ طرف سعى لإثبات ذاته و لم يلتمس أي عذر لتصرّف سيء كان قد صدر عن الآخر، فغادر بعض القضاة دمشق لأسباب عدّة، ولكن مهما كانت الأسباب مغادرتهم ساهمت في توتر الأحوال وتصاعد وتيرة الحروب بين الملوك الأيوبيين.

_إشكاليّة البحث :

من الحكمة أن يتعاون الملك و أصحاب السلطة مع رجال دولتهم و الموظفين أثناء الحروب ليكسبوا جانبهم فهم أهل الخبرة في مجال عملهم، وبالمقابل على رجال الدولة و أصحاب المناصب و الموظفين أن يتّخذوا من المواقف ما يساهم في تخفيف الضغط عن دولتهم، وهذا يطرح لنا مجموعة من التساؤلات:

1_ هل التزم القضاة أثناء الحروب التي شهدتها دمشق بآداب القضاء؟
2_ ما الأسباب التي دفعت بالقضاة لمغادرة دمشق؟
3_ هل كانت مواقف الملوك الأيوبيين تتناسب ومصلحة دمشق أم مصلحتهم الشخصية؟
4_ هل نتائج مغادرة القضاة كانت لصالح دمشق؟

_أهداف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة:

1_ أثر الحروب الأيوبيّة_ الأيوبيّة على وظيفة القضاء.

2_ تسليط الضوء على أهمية وجود المؤسسة القضائية.

3_ نتائج مغادرة كبار القضاة دمشق أثناء تلك الحروب.

_فرضيات البحث و حدوده:

يتناول البحث فرضيات عدّة حول كيفية وصول القضاة إلى مناصبهم، أسباب مغادرتهم هل كانت جبرية أم بمحض الإرادة و عن سبق تصميم، لو كانت العلاقة بين الملوك والقضاة متينة هل كان القضاة ليشاركوا بالحرب ضد ملوكهم.

_حدود البحث:

الزّمان (590ه _ 658ه/ 1193_1260م) وهو الإطار الزّماني للبحث والذي يشير إلى فترة الحروب الأيوبية_الأيوبيّة التي شهدتها دمشق منذ تسلم الملك الأفضل (590_ 592ه/ 1193_1195م) حتى رحيل آخر ملك أيوبي حكم دمشق و هو الملك الناصر يوسف صاحب حلب (648_658ه/ 1250_1260م) والقضاة الذين عاصروهم.

أمّا الإطار المكاني فتمحور حول الأماكن التي توجّه إليها قضاة دمشق أثناء الحروب ومنها الديار المصرية، وميزات تلك الأماكن حتى وجد بها القضاة خلاصهم.

_منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي القائم على جمع المادة العلمية من المصادر و المراجع المختلفة، والمنهج التاريخي التحليلي القائم على تحليل المعلومات و نقدها و صياغتها.

أولاً: وظيفة القضاء وصولاً إلى العصر الأيوبيّ:

عُدَّت وظيفة القضاء من الوظائف الرفيعة والحساسة في الدولة، فالعدالة مرتبطة بالقضاء فإن صلح شاعت وصلح أمر الدولة والناس، وإن فسد القضاء اختفت واندثرت. لذلك يتوجب على من

يتولّى مهمة القضاء أن يكون مشهوداً له بالعلم والعفة والدين، وأن يتمتع بالكثير من المزايا قد لا تكون عند غيره، وأن تتوفر بشخصه الشروط العشرة، وهي:

الإسلام، والحرّية، والذكورة، والتكليف، والعدالة، والبصر، والسمع، والنطق، والكتابة، والعلم بالأحكام الشرعية.[1]

ويذكر أنّ أوّل من طبق النظام القضائي على نطاق العالم الإسلامي وعيّن قضاة ينوبون عن الخليفة في الفصل بين الناس، هو الخليفة عمر بن الخطاب[2](13_ 23هـ/ 634_644م).

حافظ منصب القضاء على مكانته في العصر الأموي. ونظراً لتشعّب القضايا أوجب الخليفة العباسي هارون الرشيد[3] (170_ 193هـ/ 786_ 809م) استحداث منصباً جديداً وهو منصب قاضي القضاة.

اهتمّ الزنكيون[4] بالقضاء وتوسّعوا في مهامه، وهم من أوجدوا وظيفة الشهود للتأكد من صحة الادعاء.

---

[1] _الماوردي(علي بن محمد، ت 45هـ/ 1058م): الأحكام السلطانية، تح: أحمد جاد، القاهرة، دار الحديث، ط1، 2006م، ص 65.

[2] _عمر بن الخطاب: عمر بن نفيل بن عبد العزى بن كعب بن لؤي، ولد في مكة من أشراف قريش، تولى أمر الخلافة سنة 13هـ/ 634م، في عهده تمت معظم الفتوحات الإسلامية. السيوطي(جلال الدين بن عبد الرحمن، ت 911هـ/ 1505م): تاريخ الخلفاء، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2003م، ص 89_90.

[3] _ هارون الرشيد: أبو جعفر ابن المهدي محمد ابن المنصور، تسلّم أمر الخلافة العباسيّة سنة 170هـ/ 786م، عُدَّ من أشهر الخلفاء العباسيين، شهدت بغداد في عهده ازدهاراً تجارياً وثقافياً. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 225.

[4] _الزنكيون: نسبة إلى عماد الدين بن آق سنقر الذي عُدَّ مؤسس الدولة الزنكية، ينتمي عماد الدين إلى قبائل (البايو) التركمانية وعن والده الملقب: بقسيم الدولة كان من كبار رجال الدولة السلجوقية. الصلابي (علي): الدولة الزنكية، بيروت، دار المعرفة، ط1، 2007م، ص 23.

في بداية العصر الأيوبي زادت أهمية القضاء، وأوكلت للقاضي مهام جديدة إلى جانب مهمته الرئيسية المتعلقة بمنصبه بالحكم بين الناس و ردّ الخصومات، فكان إليه أمر المدارس، والأوقاف، والحسبة، والأمور الدينية؟ والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، فوظيفته (من أجل العلوم قدراً، وأكبرها مكاناً)[1]، ويذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي (569_589هـ/ 1173_ 1193م) كان لا يصدر شيئاً إلا عن رأي القاضي الفاضل (570_590هـ/ 1174_ 1193م)، ولا يأخذ قرار أمر من الأمور إلا بعد مراجعة القاضي الفاضل، وكذلك كان قاضي القضاة يقوم بدور السلطانعند الحاجة، وقد بينت المناشير والتوقيعات مكانة القاضي إذ كان يخاطب مجلسه ((**بالمجلس السامي القضائي**)).[2]

بالإضافة إلى ذلك كان يساعد القاضي في عمله العديد من الموظفين، وقد خصّص لكل موظف مهاماً محدّدة:

1_ الفقهاء و العلماء: ليسترشد بهم القاضي عند الحاجة[3].

2_ الحجّاب: الوقوف على باب القاضي، وتنظيم دخول المتخاصمين إلى مجلسه[4].

---

[1] _ ابن أبي الدّم(شهاب الدين، ت 642هـ/ 1244م) : آداب القضاء، تح: محي هلال السرحان، 2جـ ، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط1، 1984م، جـ1، ص 126.

[2] _عبد الرحمن (خالد سليمان): إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، أطروحة دكتوراة، الأردن، الجامعة الأردنية، 1977م، ص 200_206.

[3] _ ثامر(أحمد): الإدارة في العصر الأيوبي في مصر و بلاد الشام و اليمن و الجزيرة الفراتية، رسالة ماجستير، بغداد، جامعة بغداد، 2004م، ص 165.

[4] _ السبكي(تاج الدين عبد الوهاب، ت771هـ/ 1369م): معيد النعم و مبيد النقم، تح: محمد النجار ـ أبو زيد شلبي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط1، ص 55 ـ 60.

3_ الأعوان: إحضار الخصوم إلى دار العدل والقيام بين يدي القاضي عند نظره للخصومات إجلالاً لمركزه[1].

4_ الأمناء: لحفظ أموال اليتامى و الغائبين.

5_ العدول: القيام بالشهادة فيما لهم وما عليهم و مراعاة دقة عبارات السجلاتوالعقود ومطابقتها للشرع. في العصر الأيوبي اهتمّ القضاة بالشهود بعد أن تفشت شهادة الزور، و قد كان لهم حوانيت خاصة إذ صارت حرفة لهم[2].

6_ نقيبالقاضي: تنبيه القاضي على الشهود، والشهود على القاضي[3].

7_ وكلاءدارالقاضي: الدفاع عن الموكّل، و معرفة أسباب الواقعة[4].

ولكن بعد وفاة السلطان صلاح الدين أُهملت وظيفة القضاء بدمشق؛ نظراً لانشغال ملوكها الأيوبيين بمحاربة أبناء جلدتهم.

ثانياً: أسباب الحروب الأيوبيّة_ الأيوبيّة:

تحكّم الطمع بنفوس الملوك الأيوبيين الذين شعروا بالظلم، فالمناطق التي حصلوا عليها بعد وفاة والدهم السلطان صلاح الدين كانت بنظرهم ثانوية، لذلك حاول كل ملك منهم توسيع مناطق نفوذه من خلال الاعتداء على أملاك غيره من الملوك، متذرّعاً بأسباب عديدة، أمّا عن ساحة القتال فكانت دمشق التي عانت من حروبهم وتحمّلت نتائجها.

---

[1] _حسن (علي): مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، ط4، 1954م، ص 351.

[2] _ السبكي: معيد النعم و مبيد النقم، ص 63.

[3] _ السبكي: معيد النعم و مبيد النقم، ص 64.

[4] _ كاهن(كلود): الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، القاهرة، دارسينا للنشر، ط1، 1995م، ص 173.

البداية كانت مع الملك الأفضل علي[1] (589_ 592هـ/ 1193_ 1196م) صاحب دمشق، والملك العزيز عثمان[2] (589_ 595هـ/ 1193_ 1198م) صاحب الديار المصرية

فالملك العزيز وجد نفسه أنه الأحق بالسلطنة الأيوبيّة وبأن الديار المصرية كانت ولا تزال مقراً لتلك السلطنة التي أخذها الملك الأفضل وجعل دمشق مقراً لها، فأعلن الحرب على صاحب دمشق سنة 590هـ/ 1194م وقد علل سبب إعلان الحرب إهمال الملك الأفضل علي لشؤون البلاد والدليل على ذلك سيطرة الفرنج على ثغر[3] جبيل[4]بمساعدة من كان فيه وهم جماعة من الأكراد[5]، وهذا إن دل على شيء فيدل على شخصية الملك الأفضل علي الاتكالية والضعيفة، فرجال دولته تآمروا عليه.

استمرت الحرب بين الملكين ثلاث سنوات وانتهت بتدخل من قبل الملك العادل العم الأيوبي الذي حاول جاهداً على تفرقة الملوك الأيوبيين طمعاً بالسلطنة، ولكن دمشق التي سُلمت للملك

---

[1] _الملك الأفضل علي: نور الدين علي بن صلاح الدين، ولد بمصر عام 565هـ/ 1170م، منحه والده إقطاع دمشق وجنوب الشام، وبعد وفاته أوصى له بالسلطة توفي سنة 622هـ/ 1225م، ودفن بحلب.ابن خلكان(شمس الدين بن محمد، ت 681هـ/ 1282م) : وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، 6جـ، بيروت، دار صادر، ط1، جـ3، 1978م، ص 161.

[2] _ الملك العزيز عثمان: عماد الدين أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين الأيوبي، ولد بمصر سنة 567هـ/ 1172م، كان عمره 22 عاماً عندما سلمه والده مصر وجميع أعمالها، تحتسب له الكثير من الأعمال، ومنها: إنقاذ أهل القدس ومدّهم بالغلات حين أصابهم القحط وتوفي سنة 595هـ/ 1198م، ودفن في القاهرة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص 251.

[3] _ ثغر: هو كل مكان قريب من أرض العدو. الحموي (ياقوت بن عبد الله الرومي، ت 622هـ/ 1225): معجم البلدان، 5جـ، بيروت، دار صادر، ط1، 1997م، 4جـ، ص 122.

[4] _ جبيل: جبل شرق بيروت، تمكّن المسلمون من السيطرة عليه أيام يزيد بن سفيان، وبقي تحت سيطرتهم حتى سقط بيد الفرنج سنة 590هـ/ 1194م. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 109.

[5] _ أبو شامة(شهاب الدين بن عبد الرحمن، ت 665هـ/ 1266م): الذّيل على الروضتين، تح: عزت الحسيني، بيروت، دار الجبل، ط2، 1974م، ص 6.

العادل لم تغب عن بال الملك الأفضل علي الذي استقرّ في صرخد[1]. فعمل جاهداً على استعادتها وحتى يصل إلى

هدفه راسل العديد من الأطراف وطلب منهم المساعدة، وكان في مقدمتهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله[2](575- 622هـ/ 1197- 1225م) والملك الظاهر غازي[3](568-582هـ/ 1173-1186م) وقد استطاع أن يحصل على دعمهما، ونتيجة لذلك أعلن الحرب على دمشق سنة 595هـ/1198م واستمرت حتى سنة 597هـ/ 1200م، وانتهت بهزيمة الملك الأفضل علي وانتصار الملك العادل محمد[4](595-515هـ/ 1201-1218م).

بعد وفاة الملك العادل سنة 615هـ/ 1218م، تسلم أمر دمشق الملك المعظم عيسى [5](615-624هـ/ 1218-1226م) الذي حاول الوصول إلى السلطنة وحتى يصل إلى هدفه أعلن الحرب

[1] _صرخد: قلعة حصينة من أعمال دمشق، بناها نور الدين الزنكي، خربها المغول وأعاد تحصينها المماليك وتعرف بمدينة حوران العليا. الحموي: معجم البلدان، جـ3، ص 401.

[2] _ الناصر لدين الله: أحمد أبو العباس بن المستضيء بأمر الله، ولد سنة 553هـ/ 1158م، بويع له الخلافة العباسية بعد وفاة والده، كان شديد الاهتمام بالرعية، توفي ودفن في بغداد. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 352.

[3] _ الملك الظاهر غازي: أبو المنصور غازي بن صلاح الدين، حكم حلب، كان شديد الاهتمام بالعلماء والشعراء. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ4، ص 6-7.

[4] _ الملك محمد: تسلم أمر الدولة الأيوبية وتمكن من إعادة الوحدة للدولة من جديد، أحمد أبي بكر نظم الدولة وسلم أمر دمشق لابنه الملك المعظم عيسى من بعده بعد وفاته سنة 615هـ/ 1218م. ابن كثير(عماد الدين إسماعيل، ت 774هـ/ 1373م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن المحسن التركي، 21جـ، القاهرة، دار هجر، ط1، 1998م، جـ17، ص 63.

[5] _ الملك المعظم: شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل محمد الأيوبي، ولد في القاهرة سنة 578هـ/ 1182م، شبَّ في ربوع الشام كان عالي الهمة، توفي سنة 624هـ/ 1226م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص 494.

على السلطان الكامل محمد[1](615-635هـ/ 1218-1238م)صاحب الديار المصرية وعلى الملك الأشرف موسى (626-635هـ/ 1228-1237م) صاحب الديار الفراتية ولكن موته –الملك المعظم عيسى- أوقف الحرب لبرهة من الزمن حيث عاد السلطان الكامل محمد صاحب الديار المصرية إلى دمشق وفرض حصاراً على صاحبها الملك الناصر داود[2] (624-626هـ/ 1226-1228م) الذي اتهم بإهمال شؤون دمشق وظلم أهلها. ونظراً لشدة الحصار اضطر الملك الناصر داود للاستسلام، فدخل الملك الأشرف موسى دمشق سنة 626هـ/ 1237م بمباركة من السلطان الكامل محمد ولكن تلك العلاقة الودية لم تستمر بين الطرفين فالطمع تملك الملك الأشرف إذ حاول السيطرة على المزيد من المناطق، مما أدى إلى غضب السلطان الكامل وإعلانه الحرب على دمشق.

[1]_ الملك الكامل: محمد أبو المعالي، ولد بمصر سنة 576هـ/ 1180م، ولّاه والده الملك العادل الديار المصرية سنة 615هـ/ 1218م، اهتم بشؤون البلاد وتصدى للصليبيين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص 79.

[2]_ الملك الناصر داود: داود بن عيسى الأيوبي، ولد سنة 603هـ/ 1206م في دمشق وأمضى شبابه فيها، ملك دمشق بعد وفاة والده وبقيت معه حتى أخذها الملك الأشرف 626هـ/ 1228م. توفي ودفن جنوب دمشق سنة 656هـ/ 1258م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ2، ص 257.

وعند وصول الملك الصالح إسماعيل[1] إلى دمشق دخل الحرب عُدَّت الأخطر مع الملك الصالح أيوب [2](637-647هـ/ 1240- 1249م) صاحب الديار المصرية نظراً لاستقدام الخوارزمية[3] التي عاثت فساداً في دمشق.

وبعد وفاة السلطان الصالح أيوب سنة 647هـ/ 1248م لم تهنأ دمشق فعلى الرغم من توقف الحروب بين أفراد البيت الأيوبي إلا أنها عانت من المغول الذين دخلوا أراضيها بكل سهولة فالملك الناصر يوسف[4] (647-658هـ/ 1248-1260م) صاحب حلب الذي تسلم أمرها تركها لمصيرها المجهول وغادرها.

---

[1]_ الملك الصالح إسماعيل: عماد الدين إسماعيل حكم بعلبك وبصرى، تسلّم دمشق فترة من الزمن حتى أخذها منه الملك الكامل محمد صاحب الديار المصرية. ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ/ 1298م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال، 5جـ، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1957م، جـ3، ص 275.

[2]_ الملك الصالح أيوب: نجم الدين أيوب بن ناصر الدين محمد، ولد في القاهرة سنة 603هـ/ 1207م، استنابه والده الكامل على الديار المصرية، كان مهيباً، اهتم بالأدب والعلوم، توفي سنة 647هـ/ 1249م. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 183.

[3]_ الخوارزمية إحدى الطوائف الإسلامية التي سكنت في إقليم خوارزم الذي يحده من الشمال والغرب بلاد الترك، والجنوب خراسان، والشرق بلاد ما وراء النهر، وهي عدة أسر أشهرها أسرة أنوشتكين الذي استطاع التدرج بالوظائف السلجوقية حتى عينه السلطان ملكشاه والياً على إقليم خوارزم سنة 470هـ/ 1077م، ونظراً لهجوم التتار على بلادهم توزعوا في بقاع الأرض حتى قامت دولتهم عام 495هـ/ 1101م. الحموي: معجم البلدان، جـ2، ص 395.

[4]_ الملك الناصر: يوسف بن محمد غازي الأيوبي، ولد بقلعة حلب، تسلم الحكم بعد وفاة والده سنة 634هـ/ 1236م، ولكن لصغر سنه قام وزراء أبيه إلى جانب جدته ضيفة خاتون بتدبير أمور مملكته. استطاع أ، يضم العديد من المناطق إلى مملكة حلب ووصل دمشق سنة 647هـ/ 1248م، توفي سنة 659هـ/ 1261م. ابن تغري (جمال الدين يوسف، ت 874هـ/ 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين، 16جـ، بيروت، دار الكتب، ط1، 1992م، جـ 7، ص 179.

أدى الطمع، وحب الذات، وتفضيل المصالح الشخصية إلى ضياع دمشق، فالحروب التي شهدتها طال أثرها السلبي شتى مجالات الحياة فيها.

ثالثاً_ مصير قضاة الحروب:

إذاً كانت مؤسسة القضاء متكاملة منظّمة يدير شؤونها قضاة تمّ اختيارهم وفقاً لشروط محدّدة تتناسب ومهامهم المكلّفون بها و يساعدهم ثلّة من الموظفين حددت أيضاً مهامهم و لزموا بها و بالتالي يفترض أن تبقى بعيدة كل البعد عن مواصلة الشبهات و أن يؤدي أفرادها دورهم على أكمل وجه و لاسيما في الظروف الصعبة التي تتعرض لها بلادهم و نظراً لتشعّب القضايا استحدث منصب قاضي القضاة.

بالنسبة لدمشق التي تتالت عليها الحصارات من قبل الملوك الأيوبيين عانت مؤسستها القضائية كثيراً و تصدعت و ضعفت مكانتها و تعرض قضائها للعزل و المصادرة، و منهم من خرج عن آداب مهنته و قبل بالرشوة و أعطاها لشراء المنصب و البقاء عليه، و منهم من غادر دمشق يطلب مساعدة القوى الخارجية و حرض على محاربتها و قد أثرت تصرفاتهم على تصرفات الموظفين الذين بدورهم فضّلوا مصالحهم الشخصية و ساهموا في خراب دمشق، و مرد ذلك إلى الخلافات التي فرقت آل أيوب.

لم تشفع خبرة القضاة و لا حتّى سنون عمرهم لهم فأثناء الحرب الأولى التي شنّها الملك العزيز على دمشق غادرها بعض القضاة بسبب الإساءة لهم، من أبرزهم:

1_ **القاضي الفاضل(570_**590هـ/ **1174_**1193م): ارتبط اسم القاضي الفاضل بعسقلان[1] حيث ولد فيها عام 529هـ/ 1134م[2]، فكان يعرف بعبد الرحيم العسقلاني. استطاع العسقلاني أن يدخل في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي و أصبح مع مرور الوقت من كبار رجال دولته و اعتمد عليه في تدبير شؤونها، فجهّز له الجيوش، و حفظ له حقوق الرعايا، و خاض المفاوضات مع رجال عصره، و ساهم في تربية أبنائه و تدريسهم[3]. و نظراً لتلك المسؤوليات التي قام بها اعتبر المؤسس الفعلي للدولة الصّلاحية. أطلق عليه العديد من الألقاب من قبل المؤرّخين، فأشار البعض إليه بمحي الدين، و البعض بمجير الدين[4] فهو محي الدين لأنّه ساعد صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطميّة و إحياء السّنّة في مصر، وهو مجير الدين لوقوفه إلى جانب السلطان في تحرير الأراضي المقدسة من الصّليبيين.

أمّا لقبه القاضي الفاضل الذي غلب عليه، فتلقب به نظراً لعمله في الإدارة المصريّة و تميّزه آنذاك. دخل القاضي الفاضل دمشق سنة 570هـ/ 1174م، برفقة السلطان صلاح الدين و استطاع أن يكسب الشخصيات الدمشقية إلى جانب السلطان و لاسيما القاضي كمال الدين الشهر زوري[5]

---

[1]_عسقلان: في أعلى الشام، مدينة في فلسطين تقع على ساحل البحر المتوسط بين غزة وبيت جبرين، بقيت في يد الفرنج خمس وثلاثون سنة حتى استعادها صلاح الدين الأيوبي منهم سنة 583هـ/ 1154م. الحموي(ياقوت بن عبد الله الرومي، ت 622هـ/ 1225م): معجم البلدان، 5جـ، بيروت، دار صادر، ط1، 1997م، جـ4، ص 122.

[2] _ ابن خلكان: وفيات الأعيان،جـ3، ص 161؛ الذهبي(شمس الدين محمد، ت 748هـ/ 1347م): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، 4جـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م، جـ3، ص 115.

[3] _ ابن واصل مفرج الكروب، جـ3، ص 378؛ ابن العماد(عبد الحي بن أحمد، ت 1089هـ/ 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، 10جـ، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 1986م، جـ6، ص 531.

[4] _ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص 158.

[5]_كمال الدين الشهرزوري: محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر الموصلي. ولد سنة 491هـ/ 1079م ببغداد، كان أديباً وشاعراً، ولّاه نور الدين الزنكي قضاء دمشق سنة 555هـ/ 1160م، وبقي في منصبه

الذي كانت علاقته معه غير ودّيّة يسودها جوّ من التوتر و لكن بحنكته استطاع أن يحسن العلاقة بينهما[1].ثمّ نظّم الإدارة في دمشق، وعيّن القضاة و الكتّاب و اختار من الشعراء و الخطباء أفضلهم و حدّد معاش الوزراء[2] و قد أراد من ذلك توحيد دمشق و القاهرة[3]. و لكن بعد وفاة السلطان صلاح الدين تبدّلت أحوال القاضي، فلم يستجب له أحد من الملوك، و تجاهلوا نصائحه لهم بضرورة نبذ الفرقة و الابتعاد عن الاقتتال. حيث قام الملك الأفضل(589-592هـ/ 1193- 1195م) [4] باستبداله بوزيره الجزري[5] و فوّض إليه القيام بجميع الأعمال التي كان القاضي الفاضل يقوم بها، وقام باستبعاد أمراء والده ومستشاريه[6]، فرفض الفاضل أمر تقسّم العمل الذي كان يقوم به بين العديد من الأشخاص و لم يتقبّل فكرة تفضيل أحد عليه فأعلن الانعزال الإداري و السياسي و قد علّق على وصفه الجديد و قال: ((**فبعد أن كنت ممّن أخدمه بمكان العين صرت بمكان**

أيام حكم صلاح الدين الأيوبي. توفي سنة 572هـ/ 1176م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ4، ص 241.

[1] _ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ2، ص 49.

[2] _شكيل (هادية): القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين و فتوحاته، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1993م، ص 196.

[3] _ سعداوي(نظير): المؤرّخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،ط1، 1962م، ص 30.

[4]_ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص 419.

[5]_الجزري: ضياء الدين بن الأثير، ولد في جزيرة ابن عمر سنة 558هـ/ 1162م، انتقل إلى الموصل مع أسرته. تولى سنة 587هـ/ 1119م الوزارة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم انتقل إلى دمشق وتولى أمر الوزارة في عهد الملك الأفضل، توفي سنة 637هـ/ 1239م في بغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص 389؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ7، ص 328.

[6] – كاسوحة(باسل) : ((خلفاء صلاح الدين ودورهم السياسي و العسكري))، مجلة جامعة حمص، 2015م، العدد 45، ص 8.

القذاة[1]..))[2] ثمّ ما لبث أن **((تنزّه عن ملابسة الدولة و مخالطة أهلها لما رأى من اختلال الأحوال))**[3]فأبناء صلاح الدين ابتعدوا عن طريق الصواب و لم يعد يرغب بأي عمل فالذي يستحق ذلك قد رحل، و تقديراً له سيغمض جفونه عن الظلم و الأخطاء دون أن يشكي و سيغادر دمشق.

كان بإمكان الملك الأفضل أن يمنعه من الرحيل و لكن لم يفعل وحين سُئل عن سبب مغادرة القاضي و عدم تدخله و السماح له بذلك في وقت تحتاج فيه دمشق لخبرته للخروج من حالة الفوضى التي جناها الحصار عليها كان جوابه: **((نحن نعرف الصواب))**[4].

و لم يكتفِ بذلك بل كان يسمح للشاعر ابن عنين[5] بصورة غير مباشرة بهجائه إذ لم يتخذ آنذاك أي إجراء سريع لمنعه ومن جملة ما قال في القاضي:

أظهرتَ فضلُ تُقىً و فضل تعفّف والله يعلمُ أنَّهُ بهتان

و قال:

---

[1] _القذاة: جمع أقذاء، و قذيّ. ما يتكون في العين من وسخ أبيض جامد يتجمع في مجرى الدمع من العين و قَذَها أي أخرج منها القذى. الرازي(محمد بن أبي بكر، ت 666هـ، 1267م): مختار الصّحاح، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1986م، ص 221.

[2] _ شكيل : القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ص 345.

[3] _ابن الجوزي (شمس الدين، ت 654هـ/ 1256م) : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: إبراهيم الزيبق، 23جـ، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط1، 2013م، جـ22، ص 84؛ أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن، ت 665هـ/ 1266م): الروضتين في أخبار الدولتين، تح: إبراهيم الزيبق، 4جـ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1997م، جـ4، ص 483.

[4] _ابن واصل: مفرج الكروب، جـ3، ص 189.

[5] _ابن عنين: محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، أبو المحاسن، الملقب شرف الدين. ولد في دمشق سنة 549هـ/ 1154م، كان شاعراً مشهوراً، لم يسلم الدمشقيون من شره، وقد نفاه السلطان صلاح الدين إلى الهند نظراً لهجائه المستمر له، تسلم الوزارة أيام الملك المعظم عيسى، توفي ودفن في دمشق سنة 630هـ/ 1232م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص 14.

إذا كلبةٌ ولدتْ ستةً قفْ واستمعْ أيّها السائل

و إنْ كلبةٌ ولدتْ سبعةً تزاوجنَ فالفاضلْ الفَاضِلُ[1]

ولاشكّ أن رأي ابن عنين سيؤثر على بعض نفوس العامة في دمشق و بالتالي سيسعون للتخلص منه، و ذلك سينعكس سلباً على سير الأمور القضائيّة.

بالإضافة إلى ذلك أدى تصرفه إلى جرّ دمشق إلى حرب جديدة و زاد السخط عليه، فالقاضي توجّه إلى الخصم ـ الملك العزيز ـ الذي استقبله و أكرمه و بدوره باح له القاضي بأسرار دمشق و شجعه على التوجه إليها و حصارها مرة ثانية و ثالثة حتّى يتمكّن منه و تصبح دمشق ملكاً له، و بالتالي فرض الملك الأفضل على القاضي أن يتخذ قراره و يساهم في دمار دمشق على الرغم من تعهده من عدم فعل ذلك أو التدخل بين أفراد آل أيوب و لكن حين شعر بإمكانية استعادة مكانته على يد الملك العزيز تراجع عن ذلك التعهد..

[1] _ ابن عنين(محمد بن نصر، ت 630ه/ 1232م): ديوان ابن عنين، تح: خليل مردم بك، بيروت، دار صادر، ط2، 1959م، ص189- 190.

2_ القاضي بهاء الدين بن شداد (583_589هـ/ 1187_1193م):

ولد يوسف بن رافع تميم بن عتّاب الأسديّ بالموصل سنة 539هـ/ 1144م[1]، برعَ في الفقه و العلوم، و ساد أهل زمانه[2]. دخل في خدمة السلطان صلاح الدين فولّاه أمر القضاء و الحكم في القدس[3].

و لكن بعد وفاة السلطان تبدلت أحواله فإقامته في دمشق لم تدم طويلاً و السبب الخلافات التي أبصرت النور بين الملوك الأيوبيين الذين لم يستجيبوا لنصائحه ولاسيما الملك الأفضل الذي فضّل وزيره الجزري عليه، فقرّر القاضي مغادرة دمشق إلى حلب علّه يستعيد مكانته وعند وصوله قابل الملك الظاهرو حاول التّأثير عليه و دفعه لمحاربة الملك الأفضل و أخذ دمشق منه و قد يؤكد ذلك خروجه من دمشق آنذاك دون طلب الإذن من الملك الأفضل و **((اتّصل بخدمة الملك الظاهر و تقدم عنده))** و لم **يستأذن الملك الأفضل في ذلك بسبب ((حنقه الكبير عليه))**[4]. فتحت الحروب المجال لرجال الدولة بمغادرة مناصبهم و توظيف خبراتهم لصالح خصوم دمشق.

3_ القاضي ابن أبي عصرون (573_590هـ/ 1177_ 1193م):

أثناء الحرب التي فرضت على دمشق من قبل الملكين الأفضل و العزيز سنة 590هـ/ 1193م، غادر محي الدين بن شرف الدين ابن أبي عصرون دمشق إلى الديار المصريّة نظراً لفساد الأحوال فيها، فاستقبله الملك العزيز خير استقبال و ولّاه القضاء و ضمّ إليه النظر في الأوقاف[5]، قاصداً

---

[1] _ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ7، ص 84؛ الأدفوي(جعفر بن ثعلب، ت 748هـ/ 1347م): البدر السافر عن أُنس المسافر، تح: محمد فوزي، 2جـ، القاهرة، دار الكتب المصريّة، ط1، 2012م، جـ2، ص 171.

[2] _ ابن كثير(عماد الدين إسماعيل، ت 774هـ/1373م): البداية و النهاية، تح: عبدالله بن عبد المحسن التركي، 21جـ، القاهرة، دار هجر، ط1، 1998م، جـ17، ص 220.

[3] _ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ7، ص 276.

[4]_ابن واصل: مفرج الكروب، جـ3، ص 40.

[5] _ ابن تغري(جمال الدين يوسف، ت 874هـ/ 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين، 16جـ، بيروت، دار الكتب، ط1، 1992م،جـ6، ص 123.

من ذلك الاستفادة من خبرته و محاربة الملك الأفضل به و بالمقابل حاول القاضي استعادة مكانته من خلال تشجيع الملك العزيز على عدم الاستسلام حتّى يحصل على دمشق إذ كان يردّ على مسامعه جملة بحال لم تنفذ دمشق ((**لا تسلم يوم القيامة**))[1]. حاول الملك الأفضل الإقلاع عن اللهو و ندم على تفريطه برجال دولة أبيه و إصلاح الخطأ الذي ارتكبه بحق القاضي[2]، و لكن لم يشفع له ذلك إذ استمرّ الملك العزيز بتقدمه ليفرض حصاره على دمشق.

4_ القاضي زكي الدين (614_ 616ه/ 1217_ 1219م):

سار الملك المعظّم عيسى على نهج الملك الأفضل فحاول إبعاد كبار رجال دمشق عنه حتّى لا يشكلوا خطراً عليه على الرغم من أنه اتّبع سياسة التّعاون معهم في بداية حكمه و لكن ما إن ضمن سيطرته المطلقة حتّى أنفض عنه حِمل الماضي و أعلن الحرب عليهم و على ملوك بني أيوب، و لم يسلم منه الموظّفين و منهم القضاة و على رأسهم كان القاضي حسين بن يحيى، المعروف بابن الزكي[3]، الذي كان له مكانة عظيمة زمن السلطان العادل[4]، والد الملك المعظم و بالتالي من المفترض أن يتمسك به و لكن تذرّع بأسباب لا تشكل خطراً على دمشق بقدر ما تمسّه شخصياً للتخلص منه فالسبب الأول يعود لسنة 616ه/ 1219م، حيث طلبت ست الشام[5]أثناء مرضها من القاضي أن يكتب لها الوصيّة فأغضبَ تصرفه الملك المعظّم و برّر سبب خلافه مع القاضي إذ قال: ((**يذهب إلى عمتي دون إذني؟!**))[6]، تجاوز ست الشّام للملك دليل على ضعف العلاقة بين الطرفين، و غضب الملك المعظّم عيسى من الممكن ألا يكون بسبب تصرف القاضي و إنما

---

[1] _ ابن تغري: النجوم الزاهرة، جـ6، ص 123.

[2] _أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ4، ص 424.

[3] _الصفدي(صلاح الدين خليل، ت 764ه/ 1363م): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط ـ تركي المصطفى، 29جـ، بيروت، دار الإحياء و التراث العربي، ط1، 2000م، جـ9، ص 65.

[4] _ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 81.

[5] _ ستّ الشّام: أخت السلطانين صلاح الدين و العادل، كانت كثيرة الصدقة و البر، اهتمت ببناء المدارس بدمشق توفيت سنة 616ه/ 1219م. ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 82.

[6] _ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ22، ص 239؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 117؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 82.

لخسارته الأملاك التي كانت بحوزة ست الشام إذ ذُكر بأن الملك المعظّم كان شديد الحرص على عدم مغادرتها دمشق لأن((**عندها هانت الجواهر ما لا تحصى قيمته**))[1]ويرجو وفاتها عنده ((**ليستولي على أموالها و أملاكها**))[2] طغت مصلحة الملك المعظّم و تدخّل في عمل القاضي ليصل إلى أملاك عمته.

أمّا السبب الثاني: كان لسوء تصرّف القاضي مع جابي مدرسة العزيزية[3] سالم عبد الرزاق و حين سمع الملك المعظّم بالحادثة أرسل للقاضي بقجة[4] فيها كلوتة[5]وقباء[6] و أمره بلبسهما أمام الناس قاصداً من ذلك إهانته و التقليل من قيمته و تجريده من لباس العلم و لكن ما فعله الملك المعظم كان ((**حركةً قبيحةً و واقعه شنيعة لم يجرِ في الإسلام أقبح منها**)) و كانت من ((**غلطات الملك المعظّم**))[7] إذ أغضب أهل دمشق وتحالفوا معاً ضده و ذلك كان له دور في دخول الملكين الكامل و الأشرف إلى دمشق و سيطرتهما عليها.

---

[1] _ النويري(شهاب الدين أحمد، ت 733هـ/ 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب فواز ـ حكمت فواز، 33 جـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م، جـ29، ص 63.

[2] _ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص63.

[3] _ مدرسة العزيزية: تقع في حيّ الصالحيّة بدمشق، بنى تربتها الملك الأفضل سنة 592هـ/ 1195م، و أكمل الملك العزيز بناءها بشكل كامل سنة 593هـ/ 1196م. لم يبق منها إلا المحراب و قوس في جزئها الشرقي. النعيمي(عبد القادر، ت 927هـ/ 1520م): الدّارس في تاريخ المدارس، تقديم: عمار النهار، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2014م،جـ1، ص 115.

[4] _بقجة: قطعة من القماش توضع فيها الملابس. الخطيب(مصطفى): معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م، ص 370.

[5] _كلوتة: طاقية. غطاء للرأس. قبعة محشوة بالقطن. لبسها الجند في العصر الأيوبي. دوزي(رينهارت): المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 2012م، ص 343؛ إبراهيم(رجب): المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، دار الآفاق، ط1، 2002م، ص 434.

[6] _ القباء: كلمة فارسيّة، ثوب مفتوح من الأمام، ضيق الأكمام. إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ص 379.

[7] _ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ22، ص 240؛ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص 64.

و حتّى شاعر الهجاء ابن عنين تدخّل آنذاك و حاول إقناع الملك بالتراجع عن قراره و قال له:

يا أيّها الملكُ المعظّمُ سنةُ أحدثتها تبقى على الآبادِ

تجري الملوك على طريقك بعدها خلع القضاةِ و تحفةُ الزُّهادِ[1]

فالقضاة كان لهم تأثير على نفوس العامة و عليه أن يكسبهم إلى جانبه و لاسيما أن وضع دمشق الداخلي و الخارجي لم يكن مهيئاً لأيّ صدام جديد.

و لكن الملك لم يتراجع عن قراره وردّ على ابن عنين بتكريمه و تسليمه أمر الديوان و كأنّما يشجعه على العودة إلى الهجاء ضدّ من لا يرغب بوجودهم في دمشق و بذلك فتح المجال أمام أشخاص لا يفقهون بالأمور الإداريّة لاعتلاء المناصب و المشاركة في حكم دمشق و قد عبّر عن ذلك ابن عنين إذ قال:

هجوتُ الأكابر في جلّقٍ وَرُعْتُ الوضيع بهجو الرّفيع

و أُخرجت منها و لكنني رجعتُ على رغم أنفِ الجميعِ[2]

5_ القاضي الجليلي (628_642هـ/ 1230_ 1244م):

عزل الملك الصالح إسماعيل سنة 628هـ/ 1240م العديد من قضاة وفقهاء دمشق و ذلك لرفضهم تسليمه قلعة شقيق للفرنج[3]، تلك القلعة الّتي ضحّى بها من أجل التخلص من الملك الصالح أيوب.

---

[1] _ ابن عنين: ديوان ابن عنين، ص 93.

[2] _ ابن عنين: ديوان ابن عنين، ص 93.

[3] _ابن واصل: مفرج الكروب، جـ5، ص 302؛ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص 191؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 251.

و عيّن عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل، المعروف بالجليليّ[1] قاضيقضاة دمشق، و لكن الملك إسماعيل لم يحسن الاختيار إذ قام القاضي باستغلال انشغال الملك إسماعيل صاحب دمشق بمحاربة صاحب الديار المصرية الملك أيوب فتفرّد بالحكم و أباحَ لنفسه حرّية التّصرّف، وخالف عن آداب القضاء إذ ((**صادر أهل دمشق**))[2]، و أساء التصرّف معهم و استخدم أعوانه لتحقيق مآربه[3]، فاشترى الشهود و جعلهم يشهدون بالزور أمّا عن سبب قبولهم فيعود لحاجتهم و فقر حالهم فدمشق لم تكن تتخلص من حصار حتى تستقبل حصاراً أشدّ و ذلك كان له تأثير سلبيٌّ على الوضع المعيشي فيها.

و منهم من تعرض لأهل دمشق بالضرب و الأذى ((**و كانوا ظلمة آذوا الناس**))[4]

و قد قيل عن الشهود في زمن الحروب:

إيّاكَ أحقادَ الشهود فإنّما أحكامهم تجري على الحكّامِ

قومٌ إذا خافوا عداوة قادر سفكوا الدما بأسنّة الأقلام [5]

و حاول أيضاً زرع الخلاف بين الوزير أمين الدولة و بين الملك الصالح إسماعيل [6]الذي لم يستجب له و أمر بعزله و لكن تصرفه شجع الوزير على الانتقام من القاضي إذ قام بقتله و التخلص

---

[1] _ابن طولون(شمس الدين، ت 880هـ/ 1475م): الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تح: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي بدمشق، ط1، 1956م، ص 69.

[2] _ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص 197.

[3] _ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ5، ص 333.

[4] _ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص 196.

[5] _السبكي: معيد النعم و مبيد النقم، ص 64.

[6] _ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ5، ص 342.

من أعوانه[1]. فغياب شخصيّة الملك و عدم ضبطه للأمور وانشغاله بالحروب أعطى للقضاة و غيرهم فرصة للتدخل بشؤون الحكم و التصرّف وفق أهوائهم.

6_ القاضي ابن الزكي (642_ 658هـ/ 1244__ 1260م):

شهدت دمشق قبل وصول أبو الفضل يحيى ابن القاضي محي الدين أبو المعالي، المعروف بابن الزكي[2]، فترة يمكن تسميتها فترة عزل القضاة فلم يكد يتمّ تسمية قاضٍ حتّى يصدر مرسوم بعزله و لأسباب مختلفة، و قد يعوّل ذلك على الملوك أنفسهم الذين فقدوا الثقة برجال دولتهم، و فقدوا قدرتهم على اختيار المناسب. و ذلك ما حدث مع القاضي ابن الزكي الذي تسلّم أمر القضاء بدمشق و طاله قرار العزل دون معرفة السبب الحقيقي، لذلك اتفق مع القاضي المعزول صدر الدين بن سني الدولة[3] و توجها إلى حلب التي كانت بقبضة هولاكو **((و سار القاضيان المعزول صدر الدين بن سني الدولة و ابن الزكي إلى خدمة السلطان هولاكو في البلاد الحلبيّة))**[4] انتقاماً من ملوك بني أيوب[5]، و لكن القاضي ابن الزكي خالف آداب القضاء و لفقَ التّهم ضدّ القاضي صدر الدين لإبعاده عن طريقه، ثمَّ بذل الأموال لشراء منصب قاضي القضاة بدمشق فكان له ذلك[6]، و عاد إلى دمشق قاضياً من جديد، و قد ساعده على ذلك الملك الناصر الثاني الذي ما إن سمع بخبر قدوم هولاكو، و اتفاق جنده و مماليكه على التخلص منه و **((سلطنة أخيه الملك الظاهر**

---

[1] _ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 267.

[2] _الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ3، ص 318.

[3] _صدر الدين بن سني الدولة: أحمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن الدمشقي، ولد بدمشق سنة 590هـ/ 1193م، تسلّم أمر القضاء فيها سنة 643هـ/ 1245م، و بعد قرار عزله قرر خدمة السلطان هولاكو و بعد غدر القاضي زكي الدين له توجّه إلى بعلبك و توفي فيها سنة 658هـ/ 1259م. ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 409؛ ابن طولون: قضاة دمشق، ص 70.

[4] _ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 403؛ ابن طولون: قضاة دمشق، ص 72.

[5] _ اليونيني(قطب الدين موسى، ت 726هـ/ 1326م): ذيل مرآة الزمان، 4جـ، القاهرة، دار الكتب الإسلامي، ط1، 1955م، جـ1، ص316.

[6] _ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 403.

غازي ابن العزيز لشهامته))[1] حتّى هرب من دمشق[2]، و تحت قبة النسر عند الباب الكبير تمَّ قراءة التقليد باسم ابن الزكي الذي ارتدى الخلعة المرسلة من هولاكو و أمر ((**بنثر الذهب و الفضة فوق رؤوس الناس))**[3] عند ذكر اسمه تأكيداً على الطاعة المطلقة له و بأن سنوات العجاف الأيوبية قد انتهت. بعد وصول القاضي إلى هدفه استغل وظيفته و استفرد بسلطة تعيين أقاربه في الوظائف الإدارية، و التعليمية، و الدينية[4].

((شرع القاضي بجر الأشياء إلى نفسه و أولاده))[5] حاول القضاة الاستقلال بمناصبهم، و أحاطوا أنفسهم بثلّة من الموظّفين علّهم يتمكنون من تأسيس ممالك خاصة بهم لذلك شرعنوا التحالف مع أعداء البيت الأيوبي، ذلك البيت الذي تدمّر بسبب انشغال ملوكه بمحاربة بعضهم البعض و نتيجة لذلك أهملوا القضاء حتّى ضعفت بنيته.

_الخاتمة :

حاول البحث تقديم صورة واضحة إلى حد ما عن آداب القضاء و الشروط الواجب توفرها بشخص القاضي و دور الموظفين الّذين يعملون تحت يد القضاة ثم مقارنة ما سبق مع واقع وظيفة

---

[1] _أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل 732هـ/ 1330م): المختصر في أخبار البشر، 4جـ، القاهرة، الطبعة الحسينية، ط1، د.ت، جـ3، ص 200؛ المقريزي(تقي الدين أحمد، ت 845هـ/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، 8جـ، بيروت، دار صادر، ط1، 1997م، جـ1، ص 512.

[2] _المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ1، ص 512؛ قاسم(قاسم عبده)، علي(علي السيد): الأيوبيون و المماليك، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، 1995م، ص137؛ الصاوي(محمد): هولاكو، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط1، 2012م، ص 203.

[3] _ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ3، ص 202؛ ابن كثير: البداية و النهاية، جـ17، ص 403.

[4] _ خليفة(جمال): هيئة علماء و فقهاء الشام: دراسة في تكوينهم الاجتماعي و الاقتصادي و العلمي و أثره في مواجهة الغزو الصليبي، أطروحة دكتوراة، القاهرة، جامعة الزقازيق، 2005م، ص 212.

[5] _ أبو شامة(شهاب الدين بن عبد الرحمن، ت 665هـ/ 1266م): الذيل على الروضتين تراجم رجال القرنين السادس و السابع، تح: عزت العطار، بيروت، دار الجيل، ط2، 1974م، ص 205.

القضاء أثناء الحروب الأيوبيّة ــ الأيوبيّة من حيث التزام القضاة بآداب عملهم والتزام الملوك الأيوبيين باختيار الأشخاص المناسبين لتلك الوظيفة. ويمكن أن تسطر مجموعة من النتائج من خلال البحث:

1. تهميش الملوك الأيوبيين الّذين حكموا دمشق لكبار القضاة دفعهم للابتعاد عن آداب القضاء و فضّلوا البحث عن مكان أفضل يتناسب و مكانتهم.
2. غياب القضاة و إهمالهم لمهامهم دفع الموظفون لارتكاب العديد من المخالفات التي أساءت لمؤسسة القضائية.
3. استغل الملوك الأيوبيون الخلافات الحاصلة بين قضاة دمشق و ملوكها فحاولوا كسبهم واستخدامهم كوسيلة للضغط على الملك الخصم.
4. توجّه القضاة إلى الدّيار المصريّة و اختيارهم إياها دون الممالك الأيوبية يوضّح أنّ أهميتها لا تقلّ شأناً عن دمشق.
5. بعد تفريغ دمشق من قضاتها سلّم ملوكها أمر القضاء لأشخاص بعيدين كل البعد عن الخبرة القضائية و لم تتوفّر فيهم الشروط الواجب توفّرها بشخص القاضي.
6. استغل بعض القضاة الوظيفة القضائية لصالحهم الشخصي.
7. ترحيب بعض القضاة بقدوم أي قوى خارجية كالمغول للسيطرة على دمشق دليل حقدهم على الملوك الأيوبيين لسوء معاملتهم لهم.
8. أدخل الملوك الأيوبيون دمشق إلى حروبهم فكان نصيب المؤسسة القضائية منها الضعف والانهيار.

- قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر العربيّة:

1. الأدفوي(جعفر بن ثعلب، ت 748هـ/ 1347م): البدر السافر عن أُنس المسافر، تح: محمد فوزي، 2جـ، القاهرة، دار الكتب المصريّة، ط1، 2012م.
2. الأصفهاني(عماد الدين، ت 597هـ/ 1200 م): البرق الشّامي، تح: مصطفى الحيارى، 5جـ، الأردن، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط1، 1987م.
3. ابن تغري(جمال الدين يوسف، ت 874هـ/ 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين، 16جـ، بيروت، دار الكتب، ط1، 1992م.
4. ابن الجوزي (شمس الدين، ت 654هـ/ 1256م) : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: إبراهيم الزيبق، 23جـ، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط1، 2013م.
5. ابن خلكان(أحمد بن محمد، ت 681هـ/ 1282م) : وفيات الأعيان و أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، 8جـ، بيروت، دار صادر، ط1، 1978م.
6. ابن أبي الدّم(شهاب الدين، ت 642هـ/ 1244م) : آداب القضاء، تح: محي هلال السرحان، 2جـ ، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط1، 1984م.
7. الذهبي(شمس الدين محمد بن أحمد، ت 748هـ/ 1347م): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، 4جـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م.
8. الرازي(محمد بن أبي بكر، ت 666هـ، 1267م): مختار الصّحاح، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1986م.
9. السبكي(تاج الدين عبد الوهاب، ت771هـ/ 1369م): معيد النعم و مبيد النقم، تح: محمد النجار ـ أبو زيد شلبي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط1، 1948م.
10. أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن، ت 665هـ/ 1266م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق،4جـ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1997م.

_الذيل على الروضتين تراجم رجال القرنين السادس والسابع، تح: عزت العطار، بيروت، دار الجيل، ط2، 1974م.

11.الصفدي(صلاح الدين خليل، ت 764ه/ 1363م): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط ـ تركي المصطفى، 29ج، بيروت، دار الإحياء و التراث العربي، ط1، 2000م.

12.ابن طولون(شمس الدين، ت 880ه/ 1475م): الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تح: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي بدمشق، ط1، 1956م.

13.ابن العماد(عبد الحي بن أحمد، ت 1089ه/ 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، 10ج، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 1986م.

14.ابن عنين(محمد بن نصر، ت630ه/ 1232م): ديوان ابن عنين، تح: خليل مردم بك، بيروت، دار صادر، ط2، 1959م.

15.أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل 732ه/ 1330م): المختصر في أخبار البشر، 4ج، القاهرة، الطبعة الحسينية، ط1، د.ت.

16.القلقشندي(أبو العباس أحمد، ت 821ه/ 1418م): صبح الأعشى، 14ج، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1914م.

17.ابن كثير(عماد الدين إسماعيل، ت 774ه/1373م): البداية و النهاية، تح: عبدالله بن عبد المحسن التركي، 21ج، القاهرة، دار هجر، ط1، 1998م.

18.الماوردي(علي بن محمد، ت 450ه/ 1058م): الأحكام السّلطانية، تح: أحمد جاد، القاهرة، دار الحديث، ط1، 2006م.

19.المقريزي(تقي الدين أحمد، ت 845ه/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، 8ج، بيروت، دار صادر، ط1، 1997م.

20.النعيمي(عبد القادر، ت 927ه/ 1520م): الدّارس في تاريخ المدارس، تقديم: عمار النهار، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2014م.

21.النويري(شهاب الدين أحمد، ت 733ه/ 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب فواز ــ حكمت فواز، 33 ج، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م.

22.ابن واصل(جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ/ 1298م) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال، 5جـ، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1957م.

23.اليونيني(قطب الدين موسى، ت 726هـ/ 1326م): ذيل مرآة الزمان، 4جـ، القاهرة، دار الكتب الإسلامي، ط1، 1955م.

قائمة المراجع العربية:

1. إبراهيم(رجب): المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، دار الآفاق، ط1، 2002م.
2. حسن (علي): مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، ط4، 1954م.
3. الخطيب(مصطفى): معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م.
4. الصاوي(محمد): هولاكو، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط1، 2012م.
5. قاسم(قاسم عبده)، علي(علي السيد): الأيوبيون و المماليك، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، 1995م.

قائمة المراجع المعرّبة:

1. دوزي(رينهارت): المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 2012م.
2. كاهن(كلود): الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، القاهرة، دار سينا للنشر، ط1، 1995م.

قائمة الرسائل و الأطروحات الجامعية:

1. ثامر(أحمد): الإدارة في العصر الأيوبي في مصر و بلاد الشام و اليمن و الجزيرة الفراتية، رسالة ماجستير، بغداد، جامعة بغداد، 2004م.

2. خليفة(جمال): هيئة علماء و فقهاء الشام: دراسة في تكوينهم الاجتماعي و الاقتصادي و العلمي و أثره في مواجهة الغزو الصليبي، أطروحة دكتوراة، القاهرة، جامعة الزقازيق، 2005م.

قائمة المجلّات:

1. كاسوحة(باسل): ((خلفاء صلاح الدين ودورهم السياسي و العسكري))، مجلة جامعة حمص، 2015م، العدد 45.